

التداولية وعلم اللغة الاجتماعي: اللغة بين السياق والتأويل الاجتماعي

Pragmatics and Sociolinguistics: Language Between Context and Social Interpretation

د. سمرة عمر *

جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي - تبسة (الجزائر)

Samra.amor@univ-tebessa.dz

تاريخ القبول: 2026/05/30

تاريخ الإرسال: 2025/11/15

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى استكشاف التداخل بين التداولية وعلم اللغة الاجتماعي في دراسة اللغة، من خلال إبراز دور السياق في إنتاج المعنى وتأويله اجتماعيًا. فاللغة لا تُختزل في بنيتها أو معجمها، بل تُفهم عبر استعمالها في المواقف التواصلية وما تحمله من دلالات ضمنية مرتبطة بالثقافة والعلاقات الاجتماعية. وقد أظهرت النتائج أن التداولية تكشف آليات بناء المعنى من خلال آليات تعنى بالسياق ومقامات التلفظ، في حين يوضح علم اللغة الاجتماعي كيف تُوظف اللغة في تشكيل الهوية والتعبير عن الانتماء وإعادة إنتاج البنى الاجتماعية. وتخلص الدراسة إلى أن اللغة تمثل أداة مزدوجة: للتواصل المباشر وللتأويل الاجتماعي، مما يجعل الجمع بين المنظور التداولي والسوسيولوجي مدخلًا غنيًا لفهم التفاعل الإنساني في أبعاده المعرفية والثقافية.

الكلمات المفتاحية: اللسانيات، التداولية، اللسانيات الاجتماعية، الكفاءة اللغوية، الكفاءة التواصلية.

Abstract:

This study aims to explore the intersection between pragmatics and sociolinguistics in the study of language, highlighting the role of context in producing meaning and its social interpretation. Language is not limited to its structure or lexicon but is understood through its use in communicative situations and the implicit meanings it conveys within cultural and social relations. The findings show that pragmatics reveals mechanisms of meaning construction through speech acts and conversational implicature, while sociolinguistics explains how language is employed in shaping identity, expressing belonging, and reproducing social structures. The study concludes that language serves as a dual tool: for direct communication and for social interpretation, making the combination of pragmatic and sociolinguistic perspectives a rich approach to understanding human interaction in its cognitive and cultural dimensions.

Keywords: Linguistics, Pragmatics, Sociolinguistics, Communicative Function, Linguistic Competence.

مقدمة:

تُعد اللغة ظاهرة مركبة تتداخل فيها الأبعاد اللسانية، والاجتماعية، والتداولية، والثقافية، مما يجعل دراستها تتطلب مقاربات متعددة. ومن بين هذه المقاربات، يبرز كل من علم اللغة الاجتماعي sociolinguistique والتداولية بوصفهما مجالين يتقاطعان في الاهتمام بالسياق، والهوية، والنية، والتأويل.

فعلم اللغة الاجتماعي يهتم بكيفية تأثير المجتمع على اللغة، من حيث التنوع اللهجي، والهوية اللغوية، والسلطة، والطبقة، والجنس، بينما تركز التداولية على كيفية استخدام اللغة في سياق تواصل معين، مع الأخذ بعين الاعتبار نية المتكلم، والمقام، والمعنى الضمني، والفعل الكلامي.

إن الربط بين التداولية وعلم اللغة الاجتماعي لا يُعد مجرد تقاطع منهجي، بل هو تكامل معرفي يتيح فهماً أعمق للغة بوصفها أداة للتواصل والتأثير، ووسيلة لبناء المعنى داخل شبكات اجتماعية وثقافية.

أهمية الموضوع:

تهدف هذا المقال إلى الكشف عن البعد التداولي والاجتماعي للخطاب اللغوي، من خلال تحليل العلاقة بين النية التواصلية والسياق الاجتماعي والثقافي الذي يُنتج فيه الخطاب. كما تسعى إلى إبراز دور اللغة في بناء الهويات وممارسة السلطة داخل التفاعل الكلامي، وذلك عبر فهم كيف تؤثر المعطيات الاجتماعية في تأويل المعنى، وتوضيح كيف تُوظف الملفوظات الكلامية لتحقيق مقاصد غير مباشرة تُعبّر عن تمثيلات المتكلمين ومواقفهم ضمن البنية الاجتماعية.

ومنه يمكن طرح الإشكالية الآتية:

كيف يمكن للتداولية وعلم اللغة الاجتماعي أن يتكاملا لفهم اللغة بوصفها فعلاً تواصلياً واجتماعياً؟ وما أثر السياق الاجتماعي والثقافي في تشكيل النية والمعنى داخل الخطاب؟ وكيف تتداخل التداولية وعلم اللغة الاجتماعي لفهم اللغة بوصفها فعلاً تواصلياً واجتماعياً؟ وما أثر السياق الاجتماعي والثقافي في تشكيل النية والمعنى داخل الخطاب؟

1- علم اللغة الاجتماعي (اللسانيات الاجتماعية): يطلق على دراسة اللغة في ضوء علاقتها بالمجتمع العديد من التسميات مثل علم اللغة الاجتماعي، أو السوسiolسانيات، أو اللسانيات الاجتماعية، أو علم اللغة السوسiolوغي، وهي اصطلاحات تعكس اهتماماً مشتركاً بفهم الممارسات اللغوية من منظور تواصل اجتماعي وطبقي. يُعد هذا العلم أحد الفروع الأساسية في علم اللغة، ويعنى بدراسة التنوعات اللغوية واختلافاتها داخل اللغة الواحدة أو بين أكثر من لغة، ويركّز على اللغة كما تُمارس فعلياً في المجتمعات، وليس كما تُنظر في القوالب المجردة¹. فعلم اللغة الاجتماعي أو السوسiolسانيات هو فرع أساسي من علم اللغة يهتم بدراسة العلاقة بين اللغة والمجتمع. وتعدد تسمياته (اللسانيات الاجتماعية، علم اللغة السوسiolوغي...) لكنها جميعاً تعكس هدفاً مشتركاً هو فهم الممارسات اللغوية من منظور اجتماعي وتواصل وطبقي. كما يركز هذا العلم على التنوعات والاختلافات

داخل اللغة الواحدة أو بين لغات متعددة، مع الاهتمام بكيفية استعمال اللغة فعلياً في المجتمعات، لا كما تُعرض في القوالب النظرية المجردة.

وتتلخص مبادئ علم اللغة الاجتماعي حول اللغة في الآتي:

1-1 اللغة كامتداد للمجتمع:

يسعى هذا التخصص للإجابة عن أسئلة جوهرية مثل: من يتحدث؟ وماذا يقول؟ وأين ومتى وكيف؟ ولماذا؟ وذلك انطلاقاً من سياقات الاستخدام الفعلية. فقد لاحظ علماء اللغة الاجتماعيون من أمثال *William Labov*، *Fishman*، و *C. Fergusson* وغيرهم، أهمية مراقبة الممارسات اللغوية داخل مجتمعاتهم المحلية، وقدّموا من خلالها رؤى جديدة غنية لفهم اللغة في بعدها الاجتماعي الحي².

2-1 الرؤية التفاعلية للسلوك اللغوي:

قد عرّف *Fishman* هذا الحقل العلمي باعتباره علماً يدرس التفاعل بين جانبي السلوك الإنساني: استخدام اللغة والتنظيم الاجتماعي لهذا السلوك. من هنا، تبرز أهمية دراسة اللغة ليس بوصفها منظومة لغوية منعزلة، بل كأداة تواصل تحمل في طياتها بنى اجتماعية وتنظيماً ثقافياً يسهمان في توجيه الخطاب وتحديد أبعاده وتفسيره³.

وفي ستينيات القرن العشرين، برزت في الولايات المتحدة الأمريكية مقاربة سوسiolسانية متميزة في دراسة اللغة، تبنّاها *William Labov* باعتبارها تحولاً نوعياً في اللسانيات. فقد رأى أن علم اللغة الاجتماعي ليس مجرد فرع تابع للسانيات، بل هو امتداد طبيعي لها، يستمد أهميته من قدرته على الربط بين البنية اللغوية والسياق الاجتماعي المحيط بها. بالنسبة إلى *Labov*، لا يمكن دراسة اللغة بشكل فعال دون أخذ البيئة الاجتماعية بعين الاعتبار، حيث يصرّح بأن "هدفنا من دراسة اللغة هو تحليل بنيتها وتطورها داخل المجتمع"، مؤكداً أن تجاهل الظروف المحيطة يعزل اللغة عن واقعها الحي. ومن هذا المنطلق، سعى إلى دمج الطرائق الكلامية مع المتغيرات الخارجة عن اللغة (*extralinguistiques*)، والتي تشمل عوامل مثل الطبقة الاجتماعية، الجنس، السن، الموطن، العرق، مواقف المتحدثين، وظروف الاتصال. هذه العوامل تشكل خلفية ضرورية لتفسير الأنماط اللغوية وديناميكيات التخاطب، وترسّخ رؤية *Labov* في أن اللغة لا تُدرس بوصفها ظاهرة مستقلة، بل باعتبارها نتاجاً لتفاعلات اجتماعية وثقافية متداخلة يمكن تمثيلها ضمن شبكة من المتغيرات التي تعكس الواقع التداولي للمجتمع⁴.

يعود اهتمام *Labov* باللسانيات الاجتماعية إلى إدراكه لكون اللغة ظاهرة اجتماعية تتأثر بالبنية المجتمعية والظروف المحيطة بها. ويظهر تأثره بوضوح من خلال الموقف الذي عبّر عنه *Mercellici* حين اعتبر أن "اللسانيات الاجتماعية تهدف إلى إعادة إدماج دراسة اللغة في سياقها الاجتماعي، وهو ما يشير إلى قناعة مشتركة بينهما بأن اللغة لا يمكن فصلها عن المجتمع الذي تنتج فيه. فالعلاقة بين اللسانيات وعلم اللغة الاجتماعي تتمثل في دراسة اللغة ضمن تفاعلها الحيوي مع البنية الاجتماعية، بما يشمل ذلك من تأثيرات ثقافية وسياقية، وتجليات طبقية وتواصلية. هذا التصور يؤسّس لفهم اللغة

كممارسة اجتماعية تتجاوز البنية الشكلية إلى المعنى المتولد من البيئة التي تُستعمل فيها، ويعيد الاعتبار لسياق الكلام بوصفه جزءاً لا يتجزأ من بناء المعنى⁵.

2- الكفاءة التداولية والبعد الاجتماعي للخطاب: تعد الكفاءة التداولية من المفاهيم الجوهرية في علم اللغة الحديث، وتشير إلى قدرة الفرد على استخدام اللغة بطريقة مناسبة وفعالة ضمن سياقات تواصلية مختلفة، مراعيًا المقام، نية المتكلم، والعوامل الاجتماعية والثقافية المرتبطة بالخطاب. لا تقتصر الكفاءة التداولية على الالتزام بالقواعد اللغوية أو النحوية، بل تتجاوز ذلك إلى فهم المعاني الضمنية، إدراك ما يُراد قوله دون أن يُقال مباشرة، وتقدير ملاءمة التعبير للظرف والسياق⁶. فهي تشمل القدرة على اختيار الكلمات والأساليب التي تتناسب مع العلاقة بين المتحدث والمخاطب، ومع المكان والزمان، ومع الثقافة السائدة أيضًا. ولهذا فهي ضرورية في التواصل الفعال، لأنها تمثل الجانب الإنساني والاجتماعي من استخدام اللغة، وتُعد ركنًا أساسيًا من الكفاءة التواصلية العامة، إلى جانب الكفاءة اللغوية والنصية والثقافية للموقف والسياق الاجتماعي.

إذ تُعد المعرفة التداولية من المهارات التي يكتسبها الفرد من خلال تفاعله وانغماسه في الحياة الاجتماعية، إذ تنشأ وتُصقل بتأثير المقام والسياق الثقافي والتواصل اليومي. وتتميز هذه المعرفة بطبيعتها الاجتماعية المكتسبة، مما يجعلها تختلف عن المعرفة اللغوية التي يرى تشومسكي أنها فطرية وغريزية، تنبع من قدرة عقلية موروثية لدى الإنسان على توليد اللغة وفهمها⁷.

عناصر الكفاءة التداولية:⁸

- النية التواصلية: فهم ما يريد المتكلم تحقيقه (طلب، أمر، اعتذار...).
- السياق الاجتماعي: معرفة من هو المخاطب، وما هي العلاقة بينه وبين المتكلم.
- الاستلزام الحواري: إدراك المعاني الضمنية التي لا تُقال صراحة.
- الملاءمة الثقافية: استخدام اللغة بطريقة تحترم الأعراف الثقافية والاجتماعية.

2-1 الأسس الذهنية والسياقية للتواصل التداولي:

تمثل الركيزة الأساسية لفهم كيفية إنتاج الخطاب وتأويله داخل السياقات الاجتماعية والثقافية المختلفة. فالتواصل التداولي لا يُبنى فقط على المعرفة اللغوية، بل يتطلب قدرة إدراكية عالية لدى المتكلم والمتلقي، تشمل الفطنة، التأويل، واستحضار الخلفية المعرفية والثقافية. هذه الأسس الذهنية تُمكن المتكلم من اختيار الملفوظات المناسبة، وتحديد المقاصد، ورصد ردود فعل المتلقي، بينما تسمح له الأسس السياقية بتكييف خطابه وفقًا للزمان، المكان، والموقف التواصلية. فالسياق ليس مجرد خلفية، بل هو عنصر فاعل في تشكيل المعنى، حيث تتداخل فيه عناصر مثل الهوية، السلطة، العلاقات الاجتماعية، والنوايا التواصلية. ومن خلال هذا التفاعل بين الذهني والسياسي، يصبح الخطاب التداولي فعلًا اجتماعيًا واعيًا، يُنتج المعنى ويعيد تشكيله باستمرار وفقًا لمقتضيات اللحظة التواصلية.

2-1-1 الفكرة المركزية للخطاب وعلاقتها بهوية منتج الكلام ومتلقيه:

تُعد عملية التواصل في معظم الحالات فعلاً مقصوداً، رغم إمكانية حدوثها بشكل غير واعٍ أو تلقائي في بعض الأحيان. ويتطلب هذا النوع من التفاعل اشتراك المشاركين في مستوى أدنى على الأقل من القصد المشترك أو الموضوع المتبادل، وإلا تعذر تحقيق التواصل الفعلي بين الأطراف. ومن هنا تنشأ علاقة موضوعية ضمن العملية التواصلية، يُعبّر عنها بما يُعرف بـ "إطار المشاركة" (Participation Framework)، وهو مصطلح محوري في أعمال الباحث إرفينغ غوفمان، حيث يُستخدم لتحليل ديناميكيات التفاعل بين الأفراد من خلال تحديد أدوارهم وموقعهم داخل الحدث الخطابي⁹. إذ تتمثل عملية التخاطب أو التفاعل، كما يسميها "إرفينغ غوفمان"، في اجتماع مجموعة من المشاركين ضمن إطار زمني ومكاني محدّد، يتبادلون الأدوار التواصلية وفقاً لمعطيات سياقية ومعرفية دقيقة. فالمشارك في الخطاب ليس مجرد مستمع أو متكلم، بل هو عنصر تداولي حيوي تتوقف عليه فعالية الخطاب ومدى قابلية تأويله ومآلاته. ويتطلب التواصل الفعّال توفر جملة من المعطيات المحيطة بعملية الإنتاج، منها البعد الاجتماعي والنفسي والثقافي، حيث يرى غوفمان أن قيام التفاعل الحقيقي يشترط وجود رغبة مشتركة في التواصل، مقرونة بكفاءة الفرد في تحقيق تلك الرغبة. وهنا يظهر مفهوم "الكفاءة التداولية" التي تتيح للمتكلّم، من خلال ملاحظاته الدقيقة، أن يستشف استعداد المتلقي للتفاعل، كما تساعد هذه الكفاءة على رسم أفق الخطاب وتحديد هدفه. ومن هذا المنطلق، فإن أي مشاركة في التفاعل الخطابي لا يمكن أن تتم دون تصور مسبق، ولو ضمني، حول موضوع الحديث وما يُتوقع من المشاركين القيام به خلاله. فقد يكون الأمر تعبيراً عن موقف أو موافقة على فكرة، أو مجرد محادثة عابرة تهدف إلى كسر الرتابة، أو حتى استعراضاً معمّماً لقضية معرفية أو شخصية. وبذلك، تندمج الرغبة والكفاءة ضمن بنيات الخطاب التداولي لتشكّلا القاعدة التي يركز عليها كل تفاعل لغوي هادف¹⁰.

فعملية التواصل في جوهرها فعل مقصود في معظم الحالات، وإن كانت لا تخلو من إمكانيات الحدوث بشكل غير مقصود في بعض الأحيان. وهذا يعني أن المشاركين في العملية التواصلية يشتركون، على الأقل، في حدّ أدنى من القصد أو في موضوع مشترك، وإلا فإن التواصل يصبح مستحيلاً. في هذا السياق، تبرز العلاقة الموضوعية بين أطراف التفاعل، والتي عبّر عنها إرفينغ غوفمان بمفهوم "إطار المشاركة" (Participation Framework)، وهو من المفاهيم الأساسية في أعماله، ويشير إلى مجموع الأفراد المنخرطين في عملية التخاطب ضمن زمان ومكان محددين.

ويُعدّ وجود المشاركين في الخطاب عنصراً تداولياً حاسماً، إذ يتوقف عليه فهم الخطاب ومآلاته. فالمعطيات المحيطة بإنتاج الخطاب، من سياق اجتماعي ونفسي وثقافي، تُعدّ ضرورية لحدوث التواصل. ويرى غوفمان أن نجاح التفاعل يركز على عنصرين أساسيين: وجود رغبة في التواصل، وامتلاك الكفاءة اللازمة لتحقيق هذه الرغبة. ويشترط أن تكون هذه الرغبة متبادلة بين الطرفين، حيث يقوم المتكلم برصد استعداد المتلقي للتفاعل، وهنا تتجلى كفاءته التداولية. كما تُمكنه هذه الكفاءة من تحديد أفق الخطاب وهدفه، إذ لا يمكن الانخراط في أي تفاعل دون معرفة مسبقة، ولو عامة، بموضوع

الحديث وما يُتوقع من المشاركين القيام به خلاله. فقد يكون الهدف التعبير عن الموافقة، أو مجرد دردشة عابرة، أو استعراضاً لموضوع معين.

ويضيف دومينيك منغونو (Maingueneau) أن الخطاب قد يحمل هدفاً ظاهراً يتضمن في طياته هدفاً آخر أكثر عمقاً. فعلى سبيل المثال، عندما يدعو موظف زميله لتناول فنجان قهوة، قد يبدو الهدف الظاهري هو الدردشة، لكنه قد يُؤول بشكل مختلف إذا كانت العلاقة بين الطرفين يشوبها التوتر، مما يجعل الدعوة وسيلة لاختبار زوال ذلك التوتر. ولهذا السبب، يُركز تحليل الخطاب على طبيعة العلاقات التي تربط بين المشاركين فيه.

أما نظرية التخاطب عند جون غمبرز (J. Gumperz)، فتهدف إلى رصد الأسس التي تقوم عليها عملية التواصل، انطلاقاً من طبيعة المشاركين في الخطاب. وتُعدّ هذه المعطيات موجّهة لعملية إنتاج الخطاب، ومن أبرز هذه الأسس¹¹.

- وجود علاقة رغبة أو على الأقل قبول ضمني للتواصل بين المتكلم والمتلقي.
- صياغة المتكلم لخطابه بطريقة تتيح للمتلقي تأويله ضمن أفق معرفي مشترك.
- اعتماد المتلقي في تأويله للخطاب على خلفيته الثقافية والمعرفية.

يرى ج. غامبرز أن تأويل الخطاب لا يقتصر على الأطر اللغوية التقليدية، بل يتعداها إلى البُعد الاجتماعي الذي يُشكّل جوهر العملية التخاطبية. فالتواصل، في نظره، ليس مجرد تبادل لغوي منمّق أو إنتاج لجمل متناسقة، بل هو نشاط اجتماعي مركّب يتطلب مشاركة فعلية بين طرفين أو أكثر¹². ومن هذا المنطلق، فإن اللغة وحدها، مهما بلغت من الفخامة والدقة، لا تكفي لتحقيق التواصل الحقيقي ما لم تكن مدعومة بسياق اجتماعي يضيف عليها المعنى ويمنحها الفاعلية¹³.

إن التأطير الاجتماعي للتخاطب، كما يطرحه غامبرز، يُبرز أهمية العناصر غير اللغوية في فهم الخطاب، مثل العلاقات بين المشاركين، والخلفيات الثقافية، النوايا، والمواقف التفاعلية. فالمعنى لا يُستخلص من الكلمات فقط، بل من الطريقة التي تُستخدم بها داخل شبكة من التفاعلات الاجتماعية التي تمنحها دلالتها الحقيقية.

2-2-2 استيعاب دينامية التواصل بين الأفراد (التفاعل الاجتماعي):

يمكن قراءة الخطاب ضمن سياقه التفاعلي الاجتماعي، إذ يستند إلى منظومة من الطقوس التعبيرية والسلوكية التي تنظم العلاقات بين الأفراد. يشير غمبرز إلى أن فهم الاستجابات لا يتم دائماً من خلال المعنى الحرفي للكلمات، بل من خلال ما نعتقد أن المتكلم يقصده في سياق الموقف التواصل¹⁴.

ويعزز غمبرز هذا الطرح من خلال حوار مألوف يدور بين موظفين في بيئة مكتبية¹⁵:

أ.2: هل ستبقى هنا لعشرة دقائق؟

ب.2: خذ استراحتك دون إشكال. بل أمضِ وقتاً طويلاً إن شئت.

أ.1: سأكون قريباً من هنا، عند المدخل فقط. تستطيع أن تكلمني إن احتجت إلى ذلك.

ب.1: موافق، لا تقلق.

في هذا الحوار، لا تعكس الردود دائماً المعاني المباشرة، بل يُفهم منها نوايا ضمنية تتعلق بالمرونة، الاحترام، والثقة المتبادلة. فالمعنى الحقيقي يُستنبط من التفاعلات الاجتماعية، لا من الكلمات وحدها. عندما يستعمل المخاطَب (ب.2) صيغة الأمر في "خذ"، لا يحمل ذلك دلالةً حرفية على الإلزام، بل يُفهم كاقتراح لطيف وودي بالخروج لأخذ استراحة. هذا النوع من التعبير يتجاوز التركيب اللغوي الظاهر ليعبر عن نوايا اجتماعية محمولة على خلفية تواصلية مألوفة.

غياب أدوات الربط... حضور الفهم الضمني تفتقر أجزاء الحوار إلى أدوات الربط الصريحة، مما يعطي انطباعاً بأن كل عبارة مستقلة عن الأخرى، لكن المعنى الكامن يثي بوجود شبكة ضمنية من الترابط المعرفي والسياقي بين المتحاورين¹⁶.

كيف يُفهم المعنى دون تصريح؟ إذا افترضنا أن المتكلم (ب) يدرك أن المخاطَب يفهم ضمناً أنه يوافق، فإن هذا الفهم لا يستند إلى مفاتيح لغوية مباشرة، بل إلى قاعدة من المعرفة التشاركية تشمل ما يلي¹⁷:

- السياق المكاني للحوار: مكتب عمل.
- هوية الأطراف: ينتميان إلى فئة الموظفين في نفس المؤسسة.
- معرفة مسبقة بالعادات المهنية: مثل توقيت الاستراحات وأساليب الترويح.
- وعي اجتماعي بالمسؤولية التشاركية والمساندة المتبادلة خلال اليوم المهني.

حوار يعكس العرف والتقاليد لا مجرد اللغة إذاً، الحوار لا يُقرأ على أنه تفاعل لغوي سطحي، بل يُنظر إليه كتمثيل للعلاقات الإنسانية داخل بيئة العمل، يعكس تقاليد اجتماعية راسخة وتفاهات غير منطوقة. الكفاءة التداولية هنا تتجلى في القدرة على التنقل بين المعنى الظاهري والمعنى المقصود استناداً إلى عوامل سياقية واجتماعية.

2-2-3- الإطار الزمكاني لفهم البنية الاجتماعية للخطاب:

يرتكز التحليل التداولي للخطاب على مجموعة من الأسس المنهجية، من أبرزها الوعي بالسياق الزمكاني الذي يشكل البيئة الحاضنة للحدث اللغوي. ويتجاوز هذا التحليل اللغة المجردة ليشمل أيضاً دراسة المشهد التخاطبي، أي الظروف التي يُدار فيها الحوار لحظة بلحظة.

-تفاعل حيّ وتعديلات لحظية: إن طبيعة المشهد التخاطبي تفرض على المتحاورين إدخال تعديلات مستمرة على استراتيجياتهم في التفاعل، استجابةً لأي تغير طارئ مثل: ظهور انفعالات (كالغضب)، دخول شخص جديد إلى دائرة الخطاب، وقوع أحداث جانبية، أو حتى وجود مستمعين غير مشاركون في الحوار بشكل مباشر¹⁸.

- تواصل متعدد الوسائط في سياق التفاعل الكلامي، لا تُفهم الرسائل فقط من خلال الكلمات المنطوقة، بل يُستعان أيضاً بالإيماءات، التعبيرات الجسدية، والإشارات غير اللفظية لتفسير المغزى الحقيقي. وبالتالي يصبح فهم الخطاب مرهوناً بالرجوع إلى السياق الذي نُطق فيه، أي بالتحقق من ظروف إنتاجه وليس فقط مضمونه اللغوي¹⁹.

- الخطاب كحدث حي لا كمخطط مسبق: الخطاب لا يُختزل في بنية لغوية جاهزة، بل يتشكل ديناميكياً في لحظة التفاعل. ويؤكد إرفينغ غوفمان أن مجرد وجود المشاركين في الفضاء التواصل يفرز علامات وإشارات ذات دلالات اجتماعية، تجعل من التفاعل الكلامي حدثاً حياً يتأثر بالحضور كما يؤثر فيه²⁰.

بالاستناد إلى هذا المنظور، يمكن القول إن التداولية وضعت تصوراً شاملاً لعملية التخاطب لا يقتصر على اللغة فحسب، بل يدمج المعطيات غير اللفظية ضمن شبكة تفاعلية متكاملة. هذا التصور يجعل من الخطاب حدثاً اجتماعياً حياً، تتداخل فيه الإشارات اللغوية مع السياقات المكانية، الزمنية، والانفعالية، بما يسمح بفهم أعمق لمقاصد المتكلمين وديناميكية تفاعلهم.

إذ يشكل "المقام" الإطار المرجعي الذي يضم كل المعطيات غير اللفظية والمؤثرات السياقية، وهو العامل الحاسم في تحديد المعنى الحقيقي لأي عبارة أو تعبير لغوي. هذا المقام لا يقتصر على تحديد الزمان والمكان فحسب، بل يتسع ليشمل الأبعاد الاجتماعية والفكرية والثقافية، ماضياً وحاضراً، مما يمنح الخطاب طابعه الإنساني والحضاري المتفرد.

فالمعنى يتولد من السياق التفاعلي لا من اللغة المجردة: من خلال قراءة أعمال غمبرز، نستشف مجموعة من الأسس التداولية التي توطّر التخاطب، رغم عدم تخصيصه مباحث مستقلة لها. إلا أن تطور مجال تحليل المحادثة واللسانيات التداولية أتاح تسليط الضوء على هذه الأسس، التي لا تنفصل عن الدور المركزي للكفاءة التداولية في إنجاح عملية التواصل.

والتخاطب كعملية ديناميكية الفهم التداولي لا يعامل اللغة كنسق مغلق، بل كنتاج تفاعلي حيّ ينبنى على خلفيات اجتماعية وثقافية مشتركة، وعلى قدرة المتكلمين والمخاطبين في تأويل الإشارات الكلامية وغير الكلامية داخل مقام معين.

تُبنى العلاقة بين الأساس الاجتماعي والأساس اللساني للخطاب على طبيعة الدور الذي يضطلع به كل من علم الاجتماع واللسانيات في مقاربة الظاهرة اللغوية. ففي الوقت الذي يستند فيه اللسانيون إلى مفاهيم اجتماعية مثل الجماعة، الوضع الاجتماعي، الدور، والوظيفة الاجتماعية، بهدف دراسة المعايير التي تحكم استعمال اللغة داخل المجتمع، نجد أن علماء الاجتماع، من جهتهم، يوظفون النظريات اللسانية لتحليل المرجعيات الدلالية والتركيبية للغة، بما يكشف عن تداخل منهجي بين الحقلين²¹.

ولا يقتصر الإطار المكاني للخطاب على تحديد طبيعة المجتمع الذي ينتمي إليه المشاركون، بل يمتد ليشمل البعد الزمني، أي الفترة التاريخية التي يُنتج فيها الخطاب، مما يجعل السياق الزماني والمكاني عنصرين حاسمين في فهم الخطاب وتأويله²².

ومن هذا المنطلق، تصبح الكفاءة التداولية لدى مستعمل اللغة رهينة بمدى إدراكه لقواعد التخاطب السائدة في مجتمع معين وفي زمن محدد. فالخطاب، في جوهره، يُعدّ إعادة ترتيب لسياق الحياة الاجتماعية، حيث يمكن من خلاله استنباط الممارسات الاجتماعية كما نَظَر لها مفكرون بارزون مثل بيير بورديو، وتالكوت بارسونز، وكلود ليفي ستروس، الذين أكدوا على أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتواصل، بل هي ممارسة اجتماعية تعكس البنى الثقافية والرمزية للمجتمع.²³

4-2-2- مخزون معرفي متكامل:

بالاستناد إلى رؤية منغونو، يمكن القول إن فهم الخطاب لا يقوم فقط على الكفاءة اللغوية المجردة، بل يتطلب معرفة موسوعية شاملة بالعالم المحيط، وهي التي تتيح للمتلقى استيعاب السياق الكامل للرسالة الموجهة. فالمعرفة الموسوعية، كما ورد في النص، لا تقتصر على الجانب المعلوماتي، بل تشمل²⁴:

- **هوية المتكلم:** شخصيته، خلفيته الثقافية والاجتماعية، موقعه ضمن السياق الخطابي.
- **المعرفة السياقية:** الإلمام بأسماء الأعلام، سواء أكانوا أشخاصاً أم أماكن، وما تمثله هذه العناصر من رمزية أو دلالة ثقافية.
- **قواعد التخاطب:** فهم بنية الحوار، نبرة الكلام، وترتيب الجمل، وكل ما يساهم في إدراك المعنى المقصود خلف التعبير.
- **مهارات التواصل:** القدرة على ربط المعطيات اللفظية وغير اللفظية، وتحليل ما وراء الكلام من إشارات ودلالات.

من هنا يتضح أن الكفاءة التداولية لا تُبنى على المعرفة اللغوية وحدها، بل تستند إلى قاعدة معرفية أوسع تساعد على فك رموز الخطاب في ضوء التفاعل الاجتماعي والثقافي. فاللغة، كما يظهر في هذا التصور، هي جزء من منظومة معرفية وتواصلية متعددة الأبعاد.

يشير منغونو إلى تعقيد تحديد عناصر السياق ضمن التفاعل الكلامي، وهي إشكالية تتعلق بطبيعة هذه العناصر وتداخلها. ويُرجع فان دايك هذا التعقيد إلى غياب دراسات مستقلة ومتخصصة تناولت السياق بوصفه مكوناً قائماً بذاته، لا مجرد عنصر تابع للبنية اللغوية. فالسياق لا يقتصر على المؤشرات الخارجية المرتبطة بالخطاب، مثل المكان، والزمان، وهوية المشاركين؛ بل يتعدى ذلك ليشمل معطيات سابقة على لحظة التفاعل، وهنا يبرز دور المعرفة الموسوعية بالعالم كشرط أساسي لفهم المقصود²⁵.

5-2-2- المعرفة الموسوعية كأساس لتوجيه الخطاب:

لا يكمن جوهر فهم السياق في تصنيفه أو حصره، بل في امتلاك معرفة موسوعية تتيح للمتكلم توجيه خطابه بالشكل الذي يخدم أهدافه ويعبّر عن قناعاته ضمن الإطار الزماني والمكاني والثقافي الذي يتم فيه التواصل. فالمتكلم الفعال هو من يدرك خلفيات السياق، ويستثمرها توظيفاً دقيقاً في البناء الخطابي، مما يرفع من كفاءته التداولية ويمنحه القدرة على التأثير والتفسير²⁶.

2-2-6- إدراك تأويلي للخطاب:

من خلال تفاعل عناصر الإطار الاجتماعي في الخطاب، يتضح أن المتكلم لا يكتفي بمجرد إنتاج الكلام وفق دلالاته المعجمية، بل يتعين عليه أن يكون واعياً بالسياق الذي يُقال فيه، وبالرسائل الضمنية التي قد تحملها بعض العبارات. فالكلمات التي تبدو مألوفة أو ذات دلالة متفق عليها قد تُستخدم لأغراض غير لغوية، أي أن معناها الظاهري لا يعكس بالضرورة ما يراد منها فعلياً في لحظة النطق بها.

وقد أشار هارفي ساكس، في تحليله للمحادثة، إلى أن بعض الملفوظات تُعد أدوات تداولية تكشف عن الأهداف الحقيقية للخطاب. فعلى سبيل المثال، عبارة "لم أسمع جيداً" لا تُقال دائماً بسبب ضعف السمع، بل قد تكون وسيلة غير مباشرة لرفض الإجابة عن سؤال محرج أو غير مرغوب فيه. وكذلك، عندما يقول المتكلم "أريد الذهاب إلى البيت"، فقد لا يكون الهدف مجرد إنهاء اللقاء، بل التعبير عن عدم الرغبة في مواصلة التخاطب، سواء بسبب مضمون الحديث أو بسبب الطرف الآخر نفسه²⁷.

هذا النوع من الاستخدام التداولي للعبارة يُبرز أهمية الكفاءة التداولية، حيث يُفترض بالمتكلم أن يكون قادراً على توظيف اللغة بطريقة تتناسب مع السياق الاجتماعي والنفسي، وأن يراعي ردود فعل المتلقي، بل ويستبقها أحياناً. فالتخاطب ليس مجرد تبادل لغوي، بل هو فعل اجتماعي معقد يتطلب وعياً بالعلاقات، والمواقف، والنوايا، والرموز الثقافية المتداولة²⁸.

تُعد المعرفة الإدراكية جزءاً لا يتجزأ من البنية الدلالية للخطاب، إذ تُوظف من قبل المتكلم لتحقيق أهداف تواصلية تتجاوز المعنى الظاهري للكلام. فهي تعكس رغبة المتكلم في جعل خطابه أكثر قبولا لدى المتلقي، من خلال مراعاة جوانب اللباقة والحفاظ على "وجه المتلقي"، كما تُسهم في تعزيز الاتساق الداخلي للخطاب، مما يُسهّل عملية تلقيه وفهمه. ويشتمل التخاطب كذلك على مجموعة من الأدوات الكلامية التي تُستخدم لضبط مسار الخطاب وتوجيهه، مثل الانتقال السلس بين المواضيع، أو الامتناع عن الخوض في موضوع معين، أو حتى استدراج الطرف الآخر نحو قضية محددة. ومن هنا، فإن جوهر العملية التخاطبية لا يكمن فقط في تبادل الكلمات، بل في بنية التفاعل الكلامي التي تكشف عن النوايا الحقيقية للمتكلم، وتُظهر مدى وعيه بالسياق الاجتماعي والنفسي الذي يُنتج فيه الخطاب²⁹.

يتعلق هذا المقطع بقدرة المتكلم الإدراكية، أي بذكائه الفطري وبديته التي تمكنه من الربط بين الأفكار والإشارات المتضمنة في الخطاب. فالمسألة هنا لا ترتبط بالمعرفة اللغوية المجردة، بل تعتمد على توظيف كفاءة عقلية تهدف إلى فهم الخطاب وتحديد الموقف المناسب تجاهه. ومن هذا المنظور، فإن اللغة لا تُعد سوى وسيلة لنقل المقاصد بين المشاركين في التفاعل، أي أنها تمثل جانباً سطحياً أو ثانوياً من مظاهر التفاعل التداولي³⁰.

ويُستنتج من ذلك أن اللغة، خلافاً لما هو شائع، تعاني من إشكالات متعددة لم تحظَ باهتمام كافٍ داخل الدراسات اللغوية ذاتها. فقد اقتصر الحديث عن مشكلات اللغة غالباً على سياقات خارجية،

مثل الترجمة، والازدواج اللغوي، والأمية، وتطور اللغة. أما داخل الحقل اللساني، فقد كان تناول اللغة غالباً مشبعاً بالإطراء، دون التطرق إلى ما يعتريها من تعقيدات تداولية ومعرفية تؤثر في فعاليتها التواصلية³¹.

فاللغة، على خلاف ما يُداول عادة، تواجه تحديات عديدة لم تنل ما تستحقه من اهتمام داخل الدراسات اللسانية ذاتها. ففي الغالب، يجري تناول مشكلات اللغة في سياقات خارجية، مثل قضايا الترجمة، والازدواجية اللغوية، والأمية، وتطور اللغة. أما في المجال اللساني، فقد غلب على الخطاب طابع الإشادة بالقدرات اللغوية، دون التوقف ملياً عند ما يعتريها من تعقيدات معرفية وتداولية تحدّ من فعاليتها في التواصل.

1- من الكفاءة اللغوية إلى الكفاءة الإنجازية

الكفاءة اللغوية - كما سبق وأشرنا - تعني امتلاك المتكلم قواعد اللغة ومعجمها. لكن هذه المعرفة وحدها لا تكفي لإنتاج خطاب فعال، إذ لا بد من الانتقال إلى الكفاءة الإنجازية التي تُظهر قدرة المتكلم على استعمال اللغة في مواقف فعلية، ويمكن تبين عملية الانتقال من الكفاءة اللغوية إلى الكفاءة الإنجازية من خلال المثال الآتي:

- جملة لغوية صحيحة نحويًا: "أريد ماءً".

- في الموقف الإنجازي، قد يقول المتكلم في مطعم: "من فضلك، هل يمكن أن تحضر لي كأس ماء؟"، هنا يظهر الانتقال من مجرد معرفة القواعد إلى استعمالها في سياق تواصل محدد.

2- من الكفاءة الإنجازية إلى الكفاءة التداولية الخطابية

الكفاءة التداولية تتجاوز الإنجاز اللغوي لتشمل القدرة على اختيار الأسلوب المناسب بحسب السياق الاجتماعي والثقافي، بما يضمن فعالية الخطاب. ويمكن شرح هذا الانتقال أيضاً من خلال المثال الآتي:

- في قاعة درس، الطالب يقول لمعلمه: "أستاذ، هل يمكن أن تعيد الشرح؟"

- بينما في الشارع، قد يوجّه الطالب نفسه طلباً لصديقه بصيغة مختلفة: "عاود قولها، ما فهمتش"، فالاختلاف هنا ليس في القواعد، بل في ملائمة الخطاب للمقام الاجتماعي.

3- دور الثقافة والطبقة والمجموعة الاجتماعية:

الثقافة والطبقة الاجتماعية تحددان إلى حد كبير كيفية تحقيق الكفاءة التداولية. فالمتكلم يختار استراتيجيات خطابية تتناسب مع الجماعة التي ينتمي إليها، ومع القيم السائدة فيها ويمكن توضيح ذلك بالمثال الآتي:

- في مجتمع تقليدي: التحية قد تكون مطوّلة مثل "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كيف حالكم؟".

- في بيئة شبابية حضرية: التحية قد تختصر إلى "سلام، واش راك؟".

- في طبقة مهنية راقية: يُستخدم خطاب رسمي مثل "يسرني أن أرحب بكم في هذا اللقاء العلمي".

4- عند المتعلمين خصوصاً:

تواجه هذه الفئة تحدياً مضاعفاً، ليس فقط إتقان القواعد، بل أيضاً القدرة على استعمال اللغة بما يتناسب مع السياق الاجتماعي والثقافي الجديد الذي يتعلمون فيه. ففي بيئة تعليم اللغة الإنجليزية نجد مثلاً:

- متعلم للغة أجنبية قد يقول: Give me pen هذا التركيب صحيح نحويًا لكنه غير تداولي.

- الكفاءة التداولية تقتضي أن يقول: "Could you lend me a pen, please?" هنا يظهر أثر الثقافة في تحديد الصيغة المقبولة اجتماعياً.

وبهذا الشكل، يتضح أن الانتقال من الكفاءة اللغوية إلى الإنجازية ثم التداولية ليس مجرد تدرج معرفي، بل هو تفاعل مع السياق الاجتماعي والثقافي الذي يمنح الخطاب فعاليته.

خاتمة:

تناول هذا الموضوع العلاقة التفاعلية بين التداولية وعلم الاجتماع اللغوي، من خلال دراسة اللغة بوصفها ممارسة اجتماعية تتجاوز البنية اللغوية المجردة، لتتصل بالسياق الثقافي والاجتماعي الذي تُنتج فيه. فالتداولية تهتم بكيفية استعمال اللغة في مواقف واقعية، مركزة على النوايا، المقاصد، السياق، والكفاءة التداولية، بينما يركز علم الاجتماع اللغوي على تأثير المجتمع في اللغة، من حيث الطبقة، الجنس، السن، والهوية الجماعية.

وقد أظهرت الدراسات أن فهم الخطاب لا يتحقق فقط عبر تحليل البنية اللغوية، بل يتطلب إدراكاً للسياق الاجتماعي، ولمقاصد المتكلم، ولردود فعل المتلقي. كما أن اللغة لا تُعد ناقلاً محايداً للمعنى، بل أداة للتأثير والتفاوض والتأويل، تشكل داخل شبكة من العلاقات الاجتماعية والثقافية.

ومن أبرز الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من هذا الطرح أن الكفاءة التداولية تمثل امتداداً طبيعياً لتطور الدرس اللساني المعاصر، حيث مرّ هذا التطور بثلاث مراحل متتابعة: الكفاءة اللغوية، ثم الأداء، وأخيراً الكفاءة التداولية. وتتميز هذه الأخيرة بكونها عملية تفاعلية تتسم بالتكامل، إذ تتضافر فيها المعرفة الموسوعية مع المعرفة الإدراكية، ما يسمح للمتكلم باستنباط مقاصد الخطاب، حتى في الحالات التي يتسم فيها الخطاب بالتمويه أو المراوغة.

فمن دون خلفية ثقافية ومعرفية سابقة، لا يستطيع المتكلم أن يحدد بدقة نوايا الخطاب ولا أن يتفاعل معه بفعالية، مما يجعل الكفاءة التداولية عنصراً جوهرياً في فهم اللغة بوصفها ممارسة اجتماعية تتجاوز حدود البنية اللغوية المجردة.

الإحالات:

- ¹ Fishman.J.A (1972), The sociology of language. IN. Société ROWLEY New buy House. p.1.
- ² Ibid, p.1.
- ³ Ibid, p.1.
- ⁴ Labov, W, (1976), Sociolinguistique, Minuit, Paris, France. p258
- ⁵ Mecerlici.J.B, (1980), De la crise de Linguistique à la Linguistique de crise: la Sociolinguistique IN lapensée. N 209. p106.
- ⁶ John J.Gumperz, (1982), Discourse strategies, Cambridge University Press, USA. p.1.
- ⁷ تشومسكي، نعوم وفوكو، ميشيل، 2015، عن الطبيعة الإنسانية، ترجمة: أمير زكي، دار التنوير للطباعة والنشر، القاهرة، ص22.
- ⁸ المرجع نفسه، ص22.
- ⁹ Erving Goffman, (1981), Forms of talk, University of Pennyselvania Press, Philadelphia, USA.p137.
- ¹⁰ John J.Gumperz, op.cit, p.1.
- ¹¹ Ibid, p.1.
- ¹² Ibid, p.1.
- ¹³ Erving Goffman, (1969), Strategic Interaction, University of Pennsylvania Press, Philadelphia, USA.p.7
- ¹⁴ John J.Gumperz, op.cit., p.1.
- ¹⁵ Ibid, p.1.
- ¹⁶ Ibid., p.2.
- ¹⁷ Ibid, p.2
- ¹⁸ E.Goffman, op.cit, p.5.
- ¹⁹ Ibid, p.5.
- ²⁰ Ibid, p.5.
- ²¹ Marie-Anne Paveau et Georges-Elia Sarfati, (2003), Les grandes théories de la linguistique : De la grammaire comparée à la pragmatique, Armand Colin.p.221.
- ²² Theo Van Leeuwen, (2008), Discourse and Practice, Oxford University Press, New York. p.4.
- ²³ Ibid, p.4.
- ²⁴ Dominique Maingueneau, (1996), Les termes clés de l'analyse du discours, Seuil, Paris.p.34.
- ²⁵ Maingueneau, op.cit, p.22
- ²⁶ Ibid, p.22
- ²⁷ Robin Wooffitt, (2005), Conversational Analysis and Discourse Analysis, Sage Publications, London.p.6
- ²⁸ Ibid, p.6
- ²⁹ Ibid, p.6
- ³⁰ Ibid, p.6
- ³¹ Dell Hymes, (2004), Ethnography, Linguistics, Narrative Inequality: Toward an Understanding of Voice, Taylor and Francis, London.p.26-27

المراجع:

-Dominique Maingueneau, (1996), *Les termes clés de l'analyse du discours*, Seuil, Paris.

-
- Dell Hymes, (2004), *Ethnography, Linguistics, Narrative Inequality: Toward an Understanding of Voice*, Taylor and Francis, London.
- Erving Goffman, (1969), *Forms of talk*, University of Pennsylvania Press, Philadelphia, USA.
- Fishman J.A, (1972), *The sociology of language*, IN. Société ROWLEY New Buvy House.
- John J. Gumperz, (1982), *Discourse strategies*, Cambridge University Press, USA.
- Labov W, (1976), *Sociolinguistique*, Minuit, Paris, France.
- Marie-Anne Paveau et Georges-Elia Sarfati, (2003), *Les grandes théories de la linguistique : De la grammaire comparée à la pragmatique*, Armand Colin.
- Mercelelli J.B, (1980), *De la crise de Linguistique à la Linguistique de crise: la Sociolinguistique*, IN *lapensée*, N° 209.
- Robin Wooffitt, (2005), *Conversational Analysis and Discourse Analysis*, Sage Publications, London.
- Theo Van Leeuwen, (2008), *Discourse and Practice*, Oxford University Press, New York.

- تشومسكي، نعوم وفوكو، ميشيل، (2015)، عن الطبيعة الإنسانية، ترجمة: أمير زكي، دار التنوير للطباعة والنشر، القاهرة.